

أنماط خُطاب الاستكبار في القرآن الكريم

ريام عبد الحسن مجهول
جامعة القادسية / كلية التربية
العراق

أ.د سرحان جفات سلمان
جامعة القادسية / كلية التربية
العراق

الخلاصة

يمثل خُطاب الاستكبار واحدا من نمطين كبيرين عُني بهما القرآن الكريم - وهو يستحضر قضية الإيمان والكفر - ، الأول: الخُطاب الرساليّ ممزوجا بخُطاب الاستضعاف، والآخر الخُطاب الكفري ممزوجا بخُطاب الاستكبار، وما بين هذين النمطين حوار وجودي إذ يحاول كلّ منهما إنهاء وجود الآخر. وقضية الاستكبار في القرآن الكريم أثارت كثيرا من الأسئلة التي تُعنى بالإجابة عن ماهية الاستكبار ودوافعه وأنماطه، وهي أسئلة حاولت هذه الدراسة أن تتصدى لدراستها - قرانيا - والوصول من خلالها إلى فهم قرآني للصورة الاستكبارية التي رصدها القرآن الكريم، وكيف عرض لهذه الصور ، كاشفا عن أنماط خُطاب الاستكبار. وقد وضع الباحثون في الدرس الخُطابي تصنيفات عدّة لأنماط الخُطاب، لكننا سنقصر الأنماط على ما ينسجم مع طبيعة خُطاب الاستكبار، بوصفه خطابا تواصليا إبلاغيا ، يعتمد على المواجهة بين المتخاطبين، فضلا عما يحمله من رسالة (صريحة أو ضمنية) تكتنف بنيته السياقية والظروف المقامية التي يرد فيها . وهذه الأنماط تتباين من حيث المضمون ومن حيث الشكل لكنها على تباينها مضمونا وشكلا آيلة إلى بنية خُطابية ثوابتها واحدة في التداول والتركيب .

Patterns of Arrogance in the Holy Quran

ABSTRACT

The discourse of arrogance is one of the two important types tackled in the holy book, Al-Quran when dealing with belief and disbelief. The first one is the discourse of messaging mixed with the discourse of weakening while the second is the discourse of disbelief mixed with the discourse of arrogance. Between the two types is an existent struggle in which each one tries to end the another. The topic of arrogance in Al-Quran raises many questions that deal with the answers concerning the arrogance, its motives, types and style. These questions are under the study in the current work in order to understand the arrogance through the holy book that raises this point and how the powers of the arrogance have means and systemized ways to face the discourse of messaging? And how the holy book displays the ways, especially the style? The holy book reveals the discourse of arrogance is issued from a similar system for the arrogant because of the similarity in the psychological and thinking system for them.

أنماط خطاب الاستكبار في القرآن الكريم

يدل الأصل اللغوي للفظة **نمط** على (الطريقة)، إذ جاء في **لسان العرب**: ((**وَالنَّمَطُ** ضَرْبٌ مِنَ البُسْطِ، وَالجَمْعُ أنماطٌ مِثْلُ سَبَبٍ وَأَسبابٍ؛ قَالَ ابنُ بَرِّي: يُقَالُ لَهُ نَمَطٌ وَأَنماطٌ وَنِماطٌ وَيَقولُ أَبُو عُبَيْدَةَ: النَّمَطُ هُوَ الطَّرِيقَةُ. يُقَالُ: الزَّمَّ هَذَا النَّمَطُ أَي هذا الطَّرِيقَ. وَالنَّمَطُ أَيضاً: الضَّرْبُ مِنَ الضَّرُوبِ وَالنَّوْعُ مِنَ الأنواعِ. يُقَالُ: لَيْسَ هَذَا مِنَ ذَلِكَ النَّمَطِ أَي مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ وَالضَّرْبِ، وَالنَّمَطُ: ضَرْبٌ مِنَ البُسْطِ، وَالجَمْعُ أنماطٌ مِثْلُ سَبَبٍ وَأَسبابٍ))⁽¹⁾.

يفهم من ذلك ان النمط هو أسلوب وطريقة أو طراز أو نوع يُتبع وينسج على منواله، وبهذا المعنى ينسحب مفهوم النمط إلى كل ما يمكن أن ينتظم على وفق طريقة معينة، ومنها: الخطاب.

فكل خطاب يتعدّد ويتنوّع بتنوع محيط الخطاب والدوافع والغايات الباعثة على إنتاجه، إذ تحيط به سياقات مقامية ترجع في أصلها إلى الظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة بالمخاطب والخطاب والمخاطب، والتي على وفقها تكون صيغة الخطاب الأسلوبية.

فألخطاب (ليس مجرد سلسلة لفظية (عبارة أو مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتساق الداخلي (الصوتية و التركيبية و الدلالية)، بل كل إنتاج لغوي يربط فيه ربطاً تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية (بالمعنى الواسع))⁽²⁾، وهذا يقصد به أن الخطاب له علاقة بوظيفته التي هي (التواصل) فهناك تعالق بين بنية الخطاب ووظيفته (التواصلية) والظروف المقامية، تسمى هذه العلاقة ربطاً تبعية، وعلى وفق ذلك فإن الخطاب لا يمكن حده بجملة أو مجموعة من الجمل، أي بمعنى (لا حجم له) فهو كل تعبير لغوي أيا كان حجمه نتج في مقام معين لغاية معينة (غرض تواصلية)⁽³⁾.

إذن، مكونات الخطاب - هذا المصطلح الذي وضعه مانغونو - كوسينة (1955) لوسم الخطابات التي تؤدي دوراً (مؤسسا) ، وتزخر بمستويات مختلفة من الإنتاجات الخطابية ، وتتقاسم عدداً من الخصائص من حيث ظروف بروزها واستعمالها التلغفي - تتضمن أمرين: الأول (الطبقة التواصلية) والآخر (الظروف المقامية) التي تتطافر لتكوين الخطاب، ويمكن أن نصلح عليها بـ (ظروف الإنتاج) إذ انبثق هذا المصطلح عن علم النفس الاجتماعي في إطار تحليل الخطاب لدى بيشو للدلالة لا على المحيط المادي والمؤسسي للخطاب فحسب ، بل كذلك للدلالة على التصورات المتخيلة التي تنتهي للمتفاعلين حول هوياتهم (face) ، وكذا عن مرجع خطابهم (عن أي شيء أحدثه هكذا؟ / عن أي شيء يحدثني هكذا؟) ويستعمل هذا المصطلح - بمعزل عن اشكاليته - بديلاً للسياق⁽⁴⁾، وعلى ذلك فمستعملو اللغة الطبيعية لا يتواصلون عن طريق جمل منعزلة بل إنهم يكوّنون من هذه الجمل قطعاً أكبر وأعدد يمكن أن يطلق عليها اللفظ العام للخطاب⁽⁵⁾.

والظروف المقامية المشار إليها سيعتني بها البحث هنا بوصفها تمثل ركناً مهماً من عملية التواصل (الخطاب)، إذ يشارك في أي عملية تواصل مشاركان: متكلم ومخاطب، تتم بينهما العملية بالمشافهة أو المكاتبية. إذ يقصد المتكلم تمرير غرضاً تواصلياً، يصوغه جزئياً (ضمن فحوى الخطاب)، هذه الصياغة تختلف من مخاطب لآخر بحسب ((درجة صراحتها التي يحددها مخزون المتكلم المعلوماتي حين التواصل، وما يفترضه المتكلم عن مخزون المخاطب المعلوماتي))⁽⁶⁾.

وهذا المعيار يتم وفقه تحديد الظروف المقامية للخطاب فيكون الخطاب صريحاً أو مضمراً على وفق ما يتحدد من مخزون المخاطب.

هذه الظروف المقامية (ظروف الإنتاج) للخطاب تتنوع وتتعدد وتكون على أصناف منها⁽⁷⁾:

1) المعارف العامة : والمقصود بها ما يتعلق بمدرجات المخاطب.

2) معارف مقامية : مشتقة من عناصر المقام الذي تتم فيه عملية التواصل.

3) معارف سياقية : يوفرها للمتخاطبين ما تم إيرادها في قطعة خطابية سابقة.

هذه الظروف تنتج أنماطاً مختلفة للخطاب تتصل بمعايير خاصة بكل مقام يحيط بالخطاب. وهي تحيل على تكوين أنماط مختلفة ، تمثل خصائص خارجية للخطاب تحيط بخصائصه الداخلية (قوانين الاتساق الداخلي: الصرفية، التركيبية، الدلالية).

وخطاب الاستكبار بوصفه خطاباً يشترك في عملية تكوينه: المتكلم، المخاطب (المستكبر، المستكبر عليه)، يتم من خلاله تمرير غرضاً تواصلياً (إبلاغياً) معين (رسالة)، فهو خطاب تحيط به ظروف مقامية أدت إلى تكوين أنماط للخطاب الاستكبار، يمكن الكشف عنها من خلال معايير الخطاب العامة والمقصود بها (غرض الخطاب)، (نوع الخطاب)، (طريقة توصيل الخطاب).

وهذه الأنماط تتباين من حيث المضمون ومن حيث الشكل لكنّها على تباينها مضمونا وشكلا آيلة إلى بنية خطابية ثوابتها واحدة في التداول والتركيب⁽⁸⁾. وأهمية تنميط الخطاب تكمن في أن النمط الخطابي يُحدّد خصائص الخطاب الداخلية (المستويات الأسلوبية) إذ يكون لكل نمط خطابي أسلوبه وبنيته⁽⁹⁾. ومن ثم فإن ((الأسلوب يخضع للنمط الخطابي الذي يُناسبه))⁽¹⁰⁾. وقد وضع الباحثون في الدرس الخطابي تصنيفات عدّة لأنماط الخطاب، لكننا سنقتصر الأنماط على ما ينسجم مع طبيعة خطاب الاستكبار، بوصفه خطابا تواصليا إبلاغيا، يعتمد على المواجهة بين المتخاطبين، فضلا عما يحمله من رسالة (صريحة أو ضمنية) تكتنف بنيته السياقية والظروف المقامية التي يرد فيها .

أولا: النمط المباشر وغير المباشر:

المعيار في تحديد هذا النمط هو: (طرفا المشاركة) في الخطاب، ويقصد بهما (المتخاطبين المتواجهين اثناء عملية التخاطب).

في هذا الإطار يذكر صلاح فضل أنّ الخطاب ينقسم على نوعين كبيرين: خطاب مباشر وآخر غير مباشر، ويبين أنّ التداوليين يعدّون إدخال كلمات القائل في صيغ الخطاب بشكل مباشر هو أقصى درجة من الموضوعية، بقدر ما يلتزم عموما بالنقل الحرفي دون تحريف، حتى أن بعضهم يعتقد أنه يمكن أن يصل الخطاب الذي يستعمل هذه الطريقة إلى نسبة 100% لكن مع ملاحظة أنّ هذه الموضوعية في حقيقة الأمر لا تتوقف على درجة مطابقة الخطاب المذكور للأصل فحسب، بل تتوقف أيضا على ما إذا كان يوجد تدخل في المعنى أم لا، وهذا التدخل يمكن أن يحدث حتى في تلك الحالات التي لا يتم فيها تغيير الكلمات، وهذا غالبا ما يحدث في الواقع اليومي عندما تقتطع الكلمات من سياقها اللغوي وغير اللغوي الذي قبلت فيه لندخلها في علاقة حوارية جديدة بكلمات محيطة أخرى سرعان ما تضيف عليها دلالة جديدة مغايرة⁽¹¹⁾.

يتضح من ذلك أن هذا النمط على نوعين:

أحدهما مباشر: يُعنى بإدخال كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر، وتقاس موضوعيته بمدى التزامه بالنقل الحرفي بدون تحريف، وهذا المفهوم قد يصعب تحقيقه في كثير من الأحيان حتى لو التزم الناقل بنص كلمات القائل بدون تغيير، فهناك عوامل أخرى أدائية ومكانية وزمانية وحالية تؤثر في نقل الخطاب. والآخر غير المباشر: وهو يتولد عند نقل خطاب الآخر؛ مما يتطلب تحويل أزمته الفعلية، وتعديل ضمائره وإشاراتها كما تتسق في اتجاهاتها وإحالاتها، الأمر الذي يجعله مختلفا عن الخطاب المباشر. وفي الحالة الأولى -الخطاب المباشر- يكون الاتصال مباشرا من نقل فقط، والمرسل إلى المرسل إليه والناقل أو القائل لا يتدخل في السياق، بل يقوم بدور النقل فقط، وان دقة النقل مهما تكن؛ لن تكن منضبطة انضباطا دقيقا تماما، لكن الناقل يكون ملتزما إلى حد كبير بنقل النص أو الخطاب للقارئ نقلا أميناً فيما يملكه من لوازم انضباطية. وفي الحالة الثانية - أي الخطاب غير المباشر - يكون الاتصال غير المباشر، أو ما نطلق عليه في بعض الأحيان بالاتصال المنحرف، وهو اتصال يتدخل فيه الناقل أو القائل بوجهة نظره، قد تكون متوافقة أو متباينة مع النص الأصلي، لكن هذا الاتصال يخضع للإضافات التي يضيفها الناقل للنص، وهذه الإضافات قد لا تمثل بالضرورة وجهة نظر المرسل الأصلي⁽¹²⁾.

وخطاب الاستكبار بوصفه نمطا خطابيا، توافر على هذين النوعين من الخطاب: المباشر وغير المباشر وسنشير إليهما بحسب الآيات المتضمنة لهما.

- النمط الخطابي المباشر:

سبقت الإشارة إلى عناية النمط المباشر بإيراد كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر، وهذا النمط متحققا بآلياته في خطاب الاستكبار، وستكشف آيات الخطاب المباشر طريقة تحقيقه بالاستعانة بما قاله المفسرون في هذه الآيات، ومن آيات الخطاب ذات النمط المباشر ما جاء في قوله تعالى:

(1) □ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٍ □□ [هود: 91]

(2) □ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا □ [الكهف: 34]

في سورة هود يُلاحظ أن الخطاب محكي عن لسانهم من خلال السياق الحالي، واللغوي للخطاب، فيتضح أنّه كان خطابا مباشرا، من قوم شعيب إلى نبيهم، فهو جاء في سياق محاورته لهم، من خلال عبارة (مما تقول) فهذه العبارة تبين أن الخطاب أي، حصل في الوقت الذي كان شعيب يخاطبهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى بدلالة استعمال الفعل

المضارع (تقول) فهو يدلّ على الحاضر وأنّ الفعل مستمرّ الحدوث وهذا بطبيعة الحال يحيل على المباشرة في الخطاب (مواجهة المتخاطبين أثناء التخاطب).

أما الآية الأخرى فأيضاً جاء فيها الخطاب مباشراً، بدلالة سياق الآية الذي يّشير إلى المحاورّة التي تمّت بين الأخوين: ﴿وَكَانَ لَهُ تَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34] ، وفيها يقول الزمخشري: ((يحاوره: يراجعه الكلام، من حار يحور إذا رجع)) (13)، ومن المعروف أنّ مراجعة الكلام تستلزم المباشرة ، وهذه المباشرة تحيل على المباشرة في الخطاب المقصودة هنا ، فضلاً عن استعمال ضمير المخاطب (الكاف) في قوله ﴿ مِنْكَ ﴾ فاستعمل ضمير المخاطب الحاضر وليس الغائب فلم يقل (منه)، وباعتماد هذه القرائن يمكن عدّ الخطاب الوارد في الآية المباركة من النمط المباشر .

ومنه ما جاء في قوله تعالى :

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ الْأَتَسُجِدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: 12]

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَيَأْتِي لِأَطْنَتِهِ مِنَ الْكَادِبِينَ ﴾ [القصص: 38]

﴿ قَالَ أَلَمْ نُنَبِّئَكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: 18]

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة: 55]

النمط الخطابى غير المباشر:

يرد الخطاب في بعض انماطه بطريقة غير مباشرة وهذا النوع يميزه محللو الخطاب من خلال طريقة الاستنباط، والمقصود بها أن يتعلّق الخطاب أساساً بجملة مستنبطة من جملة أخرى بواسطة قاعدة واعية ويراد بها عادة الجمل الضمنية التي يمكن للمتلفظ استنباطها من ملفوظ ما باعتماده هذا الملفوظ أو على معلومات مستقاة من سياق التلّفظ ، في هذه الحالة ، يطابق الاستنباط الضمنيّات الدلالية التي تتوقّف على سياق تلفظ بعينه (44) ، وبمقاربة هذا النمط مع خطاب الاستكبار في القرآن الكريم وجد البحث أنه يكون نمطاً خاصاً به غير مباشر يعتمد على النوع الآخر وهو النمط غير المباشر والذي يعتمد على (طرفي المباشرة) معياراً في تحديده ، ومن آياته – على سبيل المثال لا الحصر -:

1. ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَيَأْتِي لِأَطْنَتِهِ مِنَ الْكَادِبِينَ ﴾ [القصص: 38]

2. ﴿ وَمَا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: 30]

3. ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 26]

4. ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴾ [سبأ: 43]

يلحظ في الآية الأولى أنّ خطاب فرعون لم يكن خطاباً مباشراً للمستكبر عليه الذي هو النبي موسى (عليه السلام) : بل إنّ ((كَلَامَ فِرْعَوْنَ الْمُخَكِّي هُنَا وَقَعَ فِي مَقَامٍ غَيْرِ مَقَامِ الْمُحَاوِرَةِ مَعَ مُوسَى فَهُوَ كَلَامٌ أَقْبَلَ بِهِ عَلَى خِطَابِ أَهْلِ مَجْلِسِهِ إِثْرَ الْمُحَاوِرَةِ مَعَ مُوسَى فَلِذَلِكَ حُكِيَ بِحَرْفِ الْعَطْفِ عَطْفَ الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ . فَهَذِهِ قِصَّةُ مُحَاوِرَةِ بَيْنِ فِرْعَوْنَ وَمَلَيْئِهِ فِي شَأْنِ دَعْوَةِ مُوسَى فَهِيَ حَقِيقَةٌ بِحَرْفِ الْعَطْفِ كَمَا لَا يَخْفَى)) (15).

ويظهر من قول المفسر أنّ الخطاب لم يتم بطريقة مباشرة بين فرعون المستكبر، وموسى (عليه السلام)، المستكبر عليه، بل جاء خطاب الاستكبار الصادر من فرعون في غير مقام المحاورّة مع موسى، بل في محاورّة

أبناء قومه لينفي الإله الذي يدعوهم موسى لعبادته ، فالخطاب هنا غير مباشر بلحاظ (المستكبر عليه) وهو موسى . [7]

هذه الآيات وردت في سياق يشير على عدم المباشرة في الخطاب، فلم يكن المتخاطبين متواجهين اثناء التخاطب، بل يُلاحظ أن المخاطب (المستكبر) يطلق خطابه باتجاه مخاطب غير حاضر لحظة الخطاب ، أو أنه حاضر لكن الخطاب لم يتم بالمواجهة بين المتخاطبين، وهذا يرد كثيرا في خطاب المستكبرين، ففعل الاستكبار حاصل وحادث في أنفسهم حتى بغياب المستكبر عليه، أو لم يكن الخطاب مرسلا لمخاطب بعينه بل هو خطاب لا على التعيين لكنه خطاب استكبار، فمثلا في قوله تعالى : [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ] [فصلت:26] ، يُلاحظ أنّ سياق الآية يدل على استكبارهم ورفضهم لرسالة القرآن فضلا عن تحريض الآخرين ونهيبهم عن الاستماع للقرآن والايامن به، فهو خطاب استكباري رغم أن المخاطب هنا ليس المستكبر عليه، بل الخطاب تم فيما بينهم . وكذلك في سورة (سبأ :43)، يُلاحظ أن الخطاب موجه إلى أبناء قومهم يحذرونهم من تصديق النبي والإيمان به، ويقفلون من شأنه ويحقرونه من خلال استعمال صيغة التكرير (رجل) فالخطاب لم يكن موجها إلى شخص النبي (المستكبر عليه) ، وهذا يحيل إلى نمط الخطاب غير المباشر، إلا أنه خطاب غاية في الاستكبار رغم غياب المستكبر عليه عن عملية الخطاب لحظة صدوره.

ثانياً: النمط الثنائي والجماعي:

تُشير الدراسات في المجال اللساني إلى أنّ الخطاب يمكن أن يكون من حيث نوع المشاركة: (ثنائيا أو جماعيا) أو مجردا (مونولوج) (أي خطاب لا يوجهه المتكلم لغير نفسه) . وقد يرد الصنف الثالث إلى الصنف الأول بوصفه حوارا ، إلا أنه منعكس، فهو حوار قائم بنفس الذات (16). والمعيار في تحديد هذا النمط هو نوع المشاركة في الخطاب، ويُقصد بها (أن يكون الحوار ثنائيا أو جماعيا) . ومصطلح إطار المشاركة ترجمة لمفهوم (participation framework) الذي وضعه كوفمان ، ويعني : أن المشاركين في التفاعل/ التخاطب يمكنهم أن يكونوا أكثر من اثنين، كما أنّ دورهم يمكنه أن يتغير ، ويميز كوفمان بين المشاركين المؤهلين الذين هم منخرطون مباشرة في التفاعل / التخاطب ، والشواهد الذين يسمعون ولكنهم خارج التخاطب ، وضمن هؤلاء الأخيرين، يوجد من هم معترف بهم بوصفهم كذلك من قبل المتكلم ، في حين أن آخرين يستمعون على غفلة منه، في الغالب الأعم ، يوفر المتكلم للمشاركين المؤهلين أمارات تدل على أنه يتوجه إليهم (17). والجدير بالذكر أنّ التفاعل يُقصد به هنا التفاعل اللغوي بين مشاركين او متفاعلين ، والذي يتم اعتمادا على عدد من الشروط التي لا بد من توافر أحدها كحدا أدنى ليتحقق حصوله ، كالمعايير المشتركة بين المتخاطبين، والانخراط في التبادل ، والاضطلاع بالمشاركة بانتاج دلائل تسمح باستمراره ، وهذا المفهوم (التفاعل) حتى وإن كان مجعولا للتبادلات الحقيقية بين المتخاطبين ، فإنه ينطبق على البعد التفاعل لكل تلفظ، حتى وإن كان مكتوبا، بناء على المسلمة القائلة- وهي لـ (باختين)- بـ (أن التفاعل اللغوي يشكل الواقع الأساسي للغة) (18) . وقد توافر خطاب الاستكبار على هذا النمط من الخطاب، كشفت عنه مقاصد الخطاب الواردة في الآيات الكريمة، من خلال ملامح السياق العامة للخطاب، التي يكشف عنها منهج تحليل الخطاب، كالمعاني الضمنية والسياق النصي، والسياق الموسع، والإحالة في النص والخطاب- الداخلية والخارجية -، إضافة إلى الافتراض - المقاصدي-، وغيرها من أدوات التحليل الخطابي (19). فالقصد في الخطاب يتضمن موقف منشئ الخطاب من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك والاتحام، وإن

هذا النص وسيلة من وسائل مناسبة خطة معينة للوصول إلى غاية معينة (20). لا سيما أن هذا النمط يتم من خلال التفاعل الدال على وحدة التحليل الكبرى للخطاب ، أي مجموع التبادلات المنجزة من قبل المشاركين في سياق ما ، والتي يصطلح عليها كوفمان ب (لقاء) والتي يوظفها الإطار الزمكاني ، وتتطلب وجود زمرة من المشاركين (المتخاطبين) يتحدثون عن موضوع ، وهذا المصطلح (اللقاء) يؤثره فيون من حيث هو (مجموع ما ينتج بين فردين أو أكثر ، بدءاً من لحظة لقاها إلى غاية افتراقهما) (21)

وتجلى ذلك القصد الاستكباري في خطابات عديدة أنتجها عدّة مخاطبين (مرسل)، وباستقراننا للنصوص التي ورد فيها خطاب الاستكبار نقف على ثلاثة أنواع من الخطابات رصدتها الدراسة:

المستوى الأول: الخطاب الصادر عن الشيطان.

المستوى الثاني: الخطاب الصادر عن الإنسان (الفرد).

المستوى الثالث: الخطاب الصادر عن الإنسان (الجماعة ، الأقوام).

هذه الأنواع الثلاثة أسهمت في تكوين النمط الثنائي والجماعي في الخطاب. وذلك بلحاظ طرفي الخطاب (المخاطب والمخاطب) فضلاً عن المقامات السياقية المحيطة بهما التي تتظاهر فتنج هذا النمط في خطاب الاستكبار الذي زخرت به آيات الخطاب. وسيضع البحث يده على هذا النمط بنوعيه الثنائي والجماعي.

- النمط الخطابي الثنائي:

يزخر خطاب الاستكبار في القرآن الكريم بالخطابات الثنائية التي تتمثل بطرفي المخاطبة (مستكبر ومستكبر عليه)، فيجمعهما حوار ثنائي يقتضي وجود مخاطب مفرد ومخاطب مفرد، ونحدد هذا النمط في الخطاب بالنظر إلى أحد طرفي الخطاب فيكون كالآتي:

النموذج الأول: بلحاظ طرفي الخطاب:

- المخاطب مفرد، المخاطب مفرد = خطاب ثنائي .

النموذج الثاني: بلحاظ المرسل:

- المخاطب (مفرد) ، المخاطب (اثنان) = خطاب ثنائي .

ومن الآيات الواردة على ضوء هذا النمط:

النموذج الأول:

وتجلى هذا النمط في خطابات إبليس (المرسل)، والذات الإلهية المرسل إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف:12]، فالخطاب هنا من النمط الثنائي بلحاظ مرسل الخطاب (إبليس) الذي يمثل المستوى الأول: الخطاب الصادر عن الشيطان، ومن آياته:

1. ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر:32]

2. ﴿ قَالَ لِمَ أَمَرَ لِسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر:33]

3. ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء:61].

4. ﴿ وَكَانَ لَهُ نَمِرٌ فَقَالَ لِبَصَائِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْبَرُ مِنْكَ مَا لَأَعْرَضَ عَنْكَ ﴾ [الكهف:34]

فأخطاب في هذه الآيات ثنائي بلحاظ طرفي الخطاب (المخاطب والمخاطب) فكليهما جاء مفرداً .

النموذج الثاني:

المخاطب (مفرد)، المخاطب (اثنان) = خطاب ثنائي

ومنه ماجاء في الآية المباركة: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ [طه:49]

هذا النمط من الخطاب يعدّ ثنائياً لكن بلحاظ متلقي الخطاب (المُرسل إليه) المتمثل بموسى وأخيه بقريظة الآية السابقة:

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي دِكْرِي ﴾ [طه:42] ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه:43]

- النمط الخطابي الجماعي:

من الأنماط التي جاء على وفقها خطاب الاستكبار نمط الخطاب الجماعي أو ما يسمى (الجماعة الخطابية) ويقصد بها : الزمر الاجتماعية التي تنتج وتسير نوعاً معيناً من الخطابات (22)، وقد شكل هذا النمط أسلوباً مهيمناً في خطابات المستكبرين، تجلى في المستوى الثاني والثالث من مستويات المستكبرين في القرآن الكريم: مثل: الأقوام المستكبرة،

قوم عاد وثمود ونوح .. الخ ، وقد توافر هذا الخطاب في القرآن الكريم ، ويمكن تتبعه من خلال ثلاثة نماذج، بلحاظ المخاطب، والمخاطب :

- 1) المخاطبين (جماعة) والمخاطب (مفرد) .
 - 2) المخاطبين (جماعة) والمخاطب (مفرد) .
 - 3) طرفا الخطاب (جماعة) .
- ومن آيات الخطاب التي مثلت النموذج الاول :
- ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:53]
- ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُكَ إِنَّا إِدَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:24]
- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعِي اللَّهُ مَغْلُوبَةً﴾ [المائدة:64]
4. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا فُكٌّ أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:4]
 5. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة:55]

أما النموذج الثاني فأياته جاءت كالتالي :

1. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَنَّمَنِّي بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123]
2. ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124]
3. ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24]
4. ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:51].

والنموذج الأخير تمثلت آياته في قوله تعالى :

1. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:11]
2. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:33]
3. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۗ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 75-76]
4. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:90]
5. ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:7]

الخاتمة

خطاب الاستكبار بوصفه خطاباً يشترك في عملية تكوينه : المتكلم، المخاطب (المستكبر، المستكبر عليه)، يتم من خلاله تمرير غرضاً تواصلياً (إبلاغياً) معين (رسالة)، فهو خطاب تحييط به ظروف مقامية أدت إلى تكوين أنماط لخطاب الاستكبار، تم الكشف عنها من خلال معايير الخطاب العامة والمقصود بها (غرض الخطاب)، (نوع الخطاب)، (طريقة توصيل الخطاب) .

وخطاب الاستكبار بوصفه نمطاً خطابياً ، توافر على نوعين من أنماط الخطاب : النمط المباشر وغير المباشر، والمعياري في تحديد هذا النمط هو: (طرفا المشاركة) ، ويقصد بهما (المتخاطبين

المتواجهين اثناء عملية التخاطب). كما يمكن أن يكون نمط الخُطاب من حيث نوع المشاركة (ثنائيا و جماعيا).

الهوامش

- (1) لسان العرب: 417/7.
- (2) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص): 15
- (3) ظ: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص): 16.
- (4) ظ: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: 25-26.
- (5) ظ: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: 16 - 17.
- (6) م. ن: 19.
- (7) م. ن: 20.
- (8) الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة الوظيفة والبنية والنمط: 181.
- (9) م. ن: 23.
- (10) م. ن: 24.
- (11) ظ: بلاغة الخطاب وعلم النص: 91
- (12) ظ: النظرية النقدية: نظرية الاتصال الأدبي وتحليل الخطاب: 96.
- (13) الكشاف: 4 / 12.
- (14) ظ: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: 73.
- (15) التحرير والتنوير: 20 / 121.
- (16) ظ: الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة الوظيفة والبنية والنمط: 21.
- (17) ظ: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: 14.
- (18) م. ن: 74.
- (19) ظ: معجم تحليل الخطاب: 35-62.
- (20) تحليل الخطاب (دراسة معجمية): 101.
- (21) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: 75.
- (22) م. ن: 21.

المصادر والمراجع

- 1- بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، المجلس الاعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1413 هـ - 1992م.
- 2- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393 هـ)، دار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1984.
- 3- الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة الوظيفة والبنية والنمط، أحمد متوكل، منشورات الأختلاف، المغرب، ط1، 2010.

- 4- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، (د. ط، ت).
- 5- لسان العرب لابن منظور (ت 671هـ)، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م،
- 6- المصطلحات الأساسية في اللسانيات وتحليل الخطاب: نعمان بوقرة، جدارا للكتاب العالمي، عمان - الأردن، ط1، 2009.
- 7- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: دومينيك مانغونو، تر: محمد يحاتين، الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- 8- معجم تحليل الخطاب: باتريك شاردو، ودومينيك منغونو، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، المركز الوطني للتر، تونس، د. ط، 2008.
- 9- النظرية النقدية: نظرية الاتصال الأدبي وتحليل الخطاب (النص الشعري انموذجا): مراد عبد الرحمن مبروك، كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز، الأدهم، ج4، ط1، 2015م.